- أرجوك..
- تعال لأغيّر لك السّروال.
- دعيني من فضلك أفعل ذلك.

ونزل بالولد عدّة درجات أسفل المحل حيث وجد المراحيض تقبع ساكنة في مكانها تحت الأرض، دخل به واحداً منها، وأنزل له السّروال، ثمّ قرّبه من العين، ولكنّه أبى، وقال له: خلاص عمّو..

رؤى البحر

ابراهيم عبدالمجيد

- ١ -

تراجع الماء فارتفعت الرّمال، وملأت الفضاءَ آلافُ الصّخور المبعثرة: صغيرةً عند الشّاطئ، كبيرة كلّما اقتربت من خطّ الأفق، تحوط بها وتنبتُ من قلبها نباتاتٌ غريبة، وتزحف بينها وحولها الأسماك عديدة الألوان والأشكال مصابة بكهرباء شيطانيّة... في الوقت الذي انتصبت فيه في أكثر من موضع، أعمدةٌ رومانيّة عليها نقوش ماحلة حروفُها. كما ظهرتْ من بعيد بقايا سفن قديمة سوداء أخشابها زلقة نمت فوقها الطّحالبُ المائيّة.

لم يقف أيُّ شخص على الشّاطئ صارخاً. لم تنصب الدّهشة خيمتها على وجه أحد. هو وحده الذي رأى!

المصطافون يجلسون تحت الشّماسي. أمامهم، تحت أرجلهم في الغالب، يحفر الأطفالُ حفراً صغيرة، يملأونها بالماء الذي ينقلونه إليها بالدّلاء البلاستيكيّة. يدخل الأطفال إلى الماء فتجري خلفهم عيونُ الآباء والأمّهات، والبحر هادئ، ينسطح ماؤه باتّساع مريح للنّظر، ويتحرّك حركةً مخمليّة عذبة، وفيه توزّعَ الشّبابُ والفتياتُ والصّبية جماعات صغيرةً تلعب الكرة بسلاسة، أو تتسابق في السّباحة وطول النّفس.

فوق الجميع فضاءٌ أبيض واسع، تصعد فيه الشّمس قويّة إلى منتصف السّماء، فتزيد من اتّساع الكون وبهائه. والمرأة الشّابة الجميلة التي ترتدي الفستانَ اللّيمونيَّ الخفيف الفضفاض الكثير الدّانتيلا عند الذيل وحول الصّدر الواسع والكمّين القصيرين الواسعين، وتسرع حافيةً يسبقها ويحيط بها الأطفال، قد ابتعدت الآن مع امتداد الشّاطئ ناحيةَ اليسار. ولقد قال لزوجته حين رأى المرأة تمرّ من أمامه:

- لايزال الوقت مبكراً لضياع الأطفال.

لكن زوجته أخرجتْ من حقيبتها، المعلّقة على جانب «الشّيزلونج» التي تجلس فوقه، نظّارتَها السّوداء.

الشّمس ليست أمامهما. الشّمسية الكبيرة فوقهما والظلّ يحيط بهما. يعرف أنّها تغالب الدّمع. أحسّ بحاجة إلى النّهوض من مكانه قليلاً.

في اللّيلة الأولى لوصولهما منذ أسبوع، عضّه الجوع في وقت متأخّر. كان قد انشغل طويلاً مع زوجته في تنظيف الشّقة المغلقة طول العام. نامت هي حين انتصف اللّيل، وظلّ هو كعادته لا يستطيع النّوم حين يغيّر مكانه إلاّ بعد مضي ليلة، وأحياناً ليلتين، في المكان الجديد.

لابدّ أنّ المخبز الإفرنجي في الشّارع القريب لايزال موجوداً؛ قال لنفسه تلك اللّيلة، وغادر الشّقة بهدوء. لم يكن أحد في الشّارع. وجد المخبز مغلقاً، فمشى إلى مخبزٍ آخر. لم يقابله أحدٌ هناك أيضاً، على غير العادة في ليالي الصّيف. وعلى غير العادة أيضاً هبّت نسمةٌ باردة للحظات. لماذا حين يشيع البرد يصبح الكون عميقاً؟ وسمع ضحكة صاخبة، تأتي من إحدى الشّقق العالية، لصوت نسائيّ بديع، وسمع صرخة تمرّ من حوله، ثمّ سمع هدير أقدام تجري.

رآه خارجاً من زقاق مظلم، وخلفه رجل آخر يحمل سكّيناً طويلة تلمع في يده، ثمّ سمع صرخة مكتومة، ولاحظ أنّ الشّارع الكبير لا تضيء كلُّ مصابيحه. انهار الأوّل فوق الأرض، واندفع الآخرُ إلى زقاق جانبيّ. استدار هو عائداً بلا خبز. تمدّد بجوار زوجته مرهقاً ونام على غير عادته في مكان جديد...

- ٢ -

قبل أن ينهض من جوار زوجته تذكّر أنّه قرأ يوماً عن جزيرة في أحد المحيطات تظهر ستّةَ أشهر ثمّ تغيب ستّة أشهر بكلّ ما فيها، ولا تلبث أن تعود إلى الظّهور.

لقد حاول، ولا يدري لماذا، أكثر من مرّة اليوم، أن يسترق السّمعَ لحديث المرأتين اللّتين تجلسان تحت الشّمسيّة المجاورة، ولم يفلح في التقاط كلمة ممّا تقولان. فهما تتحدّثان بسرعة وحماس وصوت خفيض، وتلك موهبة لم يصادفها من قبل. اكتفى بالفرجة، خلسة، على الرّاحة التي تنطلق من وجهيهما حين تضحكان بين لحظة وأخرى، ومتابعة نظراتهما إلى الماء، حيث ثلاث فتيات جميلات يلعبن بالكرة، ووسطهن يتحرّك في حيرة صبيٌّ يحاول التقاط الكرة التي يتقاذفنها بينهن فيضحكن من حيرته وعذابه.

الفتيات المراهقات يرتدين المايوهات، وتبدو أجسادهن اللاّمعة

قويّةٌ مرنة متماسكة مثيرة وشهيّة لكهل مثله. ولأنّهن يقفن في الماء قريباً من الشّاطئ، فقد بدت سيقانهنّ القويّة مثل أعمدة مرمريّة. لكنّه كان قد نهض، ووجد نفسه يمشي إلى بائع الآيس كريم الذي لم يكن يقف أمامه أحد.

ـ لوليتا.

هكذا هتف. نظر إليه الرّجل في استغراب فاتحاً فمه بابتسامة واسعة مظهراً أسناناً غير منتظمة. أدرك أنّ هذا النّوع الجديد من الآيس كريم، الذي تملأ الإعلانات عنه شاشة التّليفزيون طوال اليوم، هو نوع مخصّص للأطفال. لم يتراجع. وفكّر: هل اكتهل إلى هذا الحدّ؟ وهل يعرف الرّجل شيئاً عن لوليتا؟. تناول قطعة الآيس كريم المتجمّدة في الأنبوب البلاستيكيّ، وطلب قطعة أخرى، ثم عاد إلى زوجته باسماً. قبل أن يصل إليها أعطى القطعتين لأوّل طفلين قابلهما. وأمام زوجته وقف وسألها:

ـ ألن تنزلي البحر اليوم؟

ـ ربّما آخر النّهار.

ـ لكنّك دائماً تحبّين النّزول قبل الظّهر.

ـ كان ذلك في العام الماضي.

ابتسم وقال:

ـ حقّاً نحن في عام آخر الآن وعلينا أن نغيّر عاداتنا.

كانت تعرف أنّه يغيظها بتعليقه، وكان يعرف أنّها تعرف ذلك، فأسرع بالنّزول إلى الماء. غطس غطساً طويلاً، ثمّ وقف ينظر إليها..

كانت طول الأسبوع، وحتّى أمس، تنزل قبل الظّهر. رآها قد خلعت نظّارتها السّوداء فلمعت من بعيد عيناها الزّرقاوان... كان يحلم منذ صغره بأن يتزوّج من شقراء. وها هو قد تزوّج من شقراء.. وزرقاء العينين أيضاً.

أدرك أنّه يقف في الماء الذي رآه منذ قليل وقد تراجع حتّى الأفق. ليس هناك أسماك تحته أو بين قدميه. لا أعمدة رومانية. لا صخور ولا سفن. تذكّر القبيلة التي قصدت بلاد المغرب، فمشى أهلها في الصّحراء حتّى تعبوا فرأوا مدينة خضراء فدخلوها وأكلوا وشربوا وناموا ليلتهم، فلمّا أصبحوا لم يجدوا المدينة، بل وجدوا أنفسهم في الصّحراء من جديد، فمشوا في خوف شديد حتّى رأوا مدينة أخرى أجمل من الأولى فدخلوها وأكلوا وشربوا وناموا وأصبحوا في الصّحراء فمشوا في حزن أشدّ، حتّى قابلهم راعٍ فقير قصّوا عليه نبأهم فقال إنّ ما جرىٰ يحدث كثيراً، وسألهم عن وجهتهم فقالوا: المغرب، فقال إنّ عليهم الاستمرار في المشي حتىٰ تقابلهم مدينة ثالثة هي أوّل بلاد المغرب، فمشوا ورأوا مدينة لكنّهم لم يدخلوها أبداً إذ ظلّت تمشي أمامهم ولا يدركونها حتّى انقطع خبرهم.

استدار فرأى الأفق، فقرّر أن يسبح إليه. هل يصبح مثل تلك القبيلة؟. لا أفق في الوجود. المسافة بين الأرض التي يسبح فوقها والسّماء هي المسافة نفسها بين الأرض والسّماء عند الأفق. الإنسان هو الكائن الوحيد على الأرض الذي يحب أن يعيش مخدوعاً.

لكنّه سمع صفّارة الغطّاس الذي يقف على السّلم العالي فوق الشّاطئ فالتفت. لماذا يفعل ذلك والبحر هادئ اليوم؟ ورآه يشير إليه بعصبيّة. لعلّ هناك دوّامات ما.. رأى فتاة تقترب منه سابحةً في عوّامة سوداء. بدت مبتهجة. نظرت إليه بنزق طفولي وهي تبتسم. رأى جسدها الممدود على الماء وبين العوّامة ورديّاً، وبريق ساقيها ذهبيّاً تحت سطح الماء. لكن الغطّاس لم يكفّ عن الصّفير، فأخذ طريق العودة، واستمرّت الفتاة تتوغّل في الماء.

رأى على الشّاطئ المرأة الشّابة الجميلة عائدة لاتزال تبحث عن طفلها، وقد ازداد حولها الأطفال. تمشي باكية وعلى مهل قادمةً من ناحية اليسار ذاهبة إلى اليمين الأكثر امتداداً. لابدّ أنّ هذه المرأة لا ترى لامتداد الشّاطئ نهاية. لكن من الذي قُتل حقّاً تلك اللّيلة؟. بعد يومين من الحادث، وبينما هو متسلّقٍ فوق السّرير يقرأ قبل النّوم، وينظر بين الحين والحين إلى شعر زوجته الغزير المنسرح على ظهرها العاري وهي نائمة، فكّر فجأة أن الرجل الأوّل لم يمت، بل استطاع أن يأخذ السكّين من الآخر ثمّ يقتله بها. الأوّل هو الذي هرب في الزّقاق إذن، والآخر هو الذي هوى!!

ـ ٣ ـ

ما كاد يعود ويجلس حتّى وقف. ابتسمتْ ومدّت يديها إلى ظهرها تفك السوستة الطويلة للفستان الصّيفي، ثمّ خلعته من فوق كتفيها وتركته يسقط عند القدمين وخرجت منه بالمايوه الأزرق الفاتح المشدود على جسمها اللدن الطّويل. شدّت «البونّيه» على رأسها إلى أسفل لتزيد إحكامه، وضعت الفستان على المقعد بإهمال، ثمّ مشت بتؤدة على الرّمال تتساند على الهواء..

يفتنه دائماً ظهرُها القويُّ البديع التّقسيم. عشر سنوات هو عمر زواجهما، لم يترهّل فيها الجسدُ ولم يذبل. وقف يعاند الحزن بسبب العقم، وكثرة الارتواء إذْ تزداد شراهتها كلّما ابتعد الأمل في الإنجاب. لماذا يتحوّل اليأس إلى أمل مجنون؟ إنّه أمام هذا الشّره لا يظهر تكلّفاً. يفعل كلّ شيء مخفياً كل إحساس بالإكراه. الأنثى لا تريد الإذعان، والمرأة رحلة بحث أبديّة عن الأنوثة، وعليه أن يرضخ.. فهو يحبّها بحقّ.

في اللّحظة التي فكّر فيها أن ينهض ليلحق بها، إذ تبدو حائرة في البحر بدونه، سمع صوت صفعة وصرخة.. فالتفت ليجد رجلاً يضرب فتاة تحاول أن تلملم ملابسها من تحت شمسيّة قريبة وهو لا يسمح لها بذلك، ثمّ أمسك بشعرها ولواه في قبضة يده، ودفعها للمشي مذعنة متألّمة تبكي أمامه، والنّاس كلّهم على الشّاطئ وفي الماء يتابعون المشهد بدهشة لا تقلّ عن دهشته... حتّى صعد الرّجل بالفتاة السّلم، الذي يفضي إلى أعلى الشّاطئ حيث الكورنيش.

عندما أصبحت الفتاة والرّجل فوق الرّصيف، واختفت سيقانهما خلف كبائن الشّاطئ العالية، بدأ كثير من الرّجال والنّساء يمتعضون، ويطلقون صيحات الاستنكار. يتقبّل النّاس رؤية النّساء بالمايوه على الشّاطئ بسهولة، لكن ذلك يكون صعباً في الشّارع العام مهما اقترب الشّارع من البلاج؛ وكورنيش الاسكندرية ليس شارعاً صغيراً مقفلاً.

سمع النّاس صوت احتكاك عجلات سيّارة تنطلق بسرعة غاضبة. تعلّقت بها أنظارُ الذين وقفوا فوق الرّصيف من المارّة. أدرك المصطافون أنّ السّيارة حملت الرّجل والفتاة معاً. نزل هو بعينيه، لكنّه توقّف بها عند باب مفتوح لإحدى كبائن الدّور الثّاني، فلمح خلفه شابّاً وفتاة، يقفان بثياب البحر في عناق هادئ، يرشفان القبلات على مهل، ففكّر في السّعداء والتّعساء، وعلى غير قصد منه تساءل في نفسه: إلى أي نوع ينتمي؟

كان سعيداً بتخلّصه من مشاغله الكثيرة في القاهرة، والمجيء إلى الإسكندرية التي يعشقها، وقال لزوجته «سندخل كل مطاعم المدينة الضّخمة وكلّ ملاهيها هذه المرّة، وسنسهر حتّى الصّباح كلّ ليلة في أحد الفنادق الكبرى، ولن نبقى في شقّتنا غير ساعات قليلة بعد العودة والسّهر، ولن أخبر أحداً من أهلي بحضورنا حتّى لا يزورنا فيضيع وقتنا، ولا يكلّفنا أحد مضض الزّيارات العائليّة». وقالت له إنّها أيضاً لن يشغلها عنه شيء، ولا شغل الكانفاه الذي تحبّه ولا تتخلّى عنه حتّى على الشّاطئ.

وفي اليوم التّالي لوصولهما طلبت منه أن يأخذها في السّيارة إلى سوق المنشية لتشتري قطعاً من الكانفاه وخيوطاً وإبراً. وافق هو على الفور، وكان بالليلة الماضية قد رأى حادث القتل الغامض، ومشى معها في السّوق صامتاً.

عند عودتهما ضحكت ونظرت إليه بشقاوة مباغتة. ابتسم. لقد أدرك أنّها تتذكّر حديثه لها دائماً حين يراها تشتغل في الكانفاه. ينظر إليها مبهوتاً ويقول «كلّما رأيتك ترسمين بالخيط فلاّحة تحمل جرّة أو دَلواً، أكسرُ الجرّة وأترك الماء ينزل على رأس الفلاّحة؛ وحين ترسمين فلاّحاً يعزف على النّاي أسمع صوت النّاي.. ومرّة رأيتك ترسمين نسراً يصعد إلى السّماء فتمنّيت لو حملني معه وتركني فوق جبل أو بركان»..

في كلّ مرّة تضحك وتقول له «أنت مجنون». وفي آخر مرّة قالت له ذلك ردّ قائلاً «نعم أنا مجنون لأنّي كلّما وقفت على الشرفة فكّرت في القفز ثمّ الجري على الأرض. أنا لا أفكّر في الانتحار كما ترين لأنّي أنزل سالماً وأجري..» لكنّها كفّت عن الضّحك لحظة ثمّ ابتسمت وهي تقول:

ـ حلمت أمس حلماً غريباً.

ـ خيراً.

ـ حلمتُ أنّي دخلت إلى مدينة تحوّل رجالها إلى أعمدة خشبيّة، وتحوّلت نساؤها إلى أشجار خضراء عريضة أورقت فروعاً وأزهرت أطفالاً جميلين تعلّقوا بالأغصان...

ـ ٤ ـ

اشتدّت الشّمس. ملأ الضّوءُ الأبيضُ القويُّ الفضاءَ. ارتفع الموج قليلاً وكاد يصل إلى الصّف الأوّل من المصطافين فأفسد كل حُفَر الأطفال الذين وقفوا يضحكون، وهم يرون الدّلاءَ وأدوات الحفر يجرّها الموجُ إلى البحر، ثمّ انطلقوا خلفها يلحقون بما يستطيعون منها.

ظهرت المرأةُ الجميلة الباكية من جديد، وقد ازداد عدد الأطفال الذين يحيطون بها هذه المرّة، بينما تباطأت خطواتها، وغاض لون وجهها أكثر وملأت الدّموع صفحته. بدت ذاهلة تماماً لا تبحث عن أحد. هتفت بها إحدى السّيدات أن تذهب إلى أقرب نقطة بوليس فربّما أخذه أحد إلى هناك، فكثير من النّاس يرون أن هذه أفضل الطّرق لإعادة التّائهين إلى أسرهم. بدا أنّها لم تسمع هتاف المرأة. ظلّت تمشي وحولها الأطفال بلا هدف.....

ـ مسكينة.

قالت زوجته التي كانت قد خرجت من الماء منذ قليل وجلست بالمايوه بعد أن جفّفت جسمها وحرصت أن تضع فوطة كبيرة على فخذيها وهي جالسة.

ـ البحر خطر على الأطفال دائماً.

قال ذلك، فقالت هي:

ـ صحيح هذا منظر يتكرّر كلّ عام.

مدّ يده إلى الحقيبة البلاستيكية التي بها السّاندوتشات ثمّ أخرجها خاليةً. سألته:

ـ جائع؟

ـ فكّرت أن آكل، لكن لا بأس أن ننتظر قليلاً.

مدّت يدها إلى حقيبة أخرى من قماش. أخرجت قطعة كانفاه وكرة خيط وإبرة ثمّ قالت:

ـ هذه القطعة بها مشهد رائع. بحر وعرائس بحر يلعبن في الماء، هل ستسبح بينهن؟

ابتسم وسكت قليلاً ثمّ تساءل:

ـ لماذا ارتفع الموج هكذا والوقت ظهر؟

شردت قليلاً ثمّ أجابت:

ـ البحر زعلان!

ـ نعم؟!

ـ زعلان. المفروض أنّك اسكندراني وتعرف حزنَ البحر.

ـ هذه أوّل مرّة اسمع فيها ذلك.

ـ لقد قلته لك العام قبل الماضي.

سكت ولم يعلّق. إنّه لا يذكر شيئاً من العام قبل الماضي، وربّما من العام الماضي أيضاً. وبسرعة انشغلتْ عنه بالشّغل في الكانفاه وباستغراق شديد، فانطلق يضحك لكن بصوت غير عال. لم تهتمّ بذلك، فقال:

ـ هل تعرفين لماذا ضحكت؟
ـ لقد تعوّدتُ على جنونك.
ـ هذه المرّة تذكّرت مجنوناً أكبر.
ـ . . . .
ـ تذكّرت الحاكم بأمر الله.
ـ وماذا يُضحك في هذا؟ كنّا نضحك على سيرته أيّام الدّراسة.
ـ هل تعرفين ماذا فعل ببعض النّساء؟
لم تردَّ. اتّسعتْ عيناها لاستقبال ما سيقول.
ـ لقد ذهب إلى أحد حمّامات النّساء. كانتْ به ثلاثون امرأة. أمر بسدّ الباب عليهنّ وبنىٰ على الباب جداراً ثمّ أشعل النّار في الحمّام!

في البداية تنمّرت للحظة، لكنّها ابتسمتْ بينما انطلق هو في ضحك هستيري حتى ظنّت أن الهواء الذي هبّ فجأة هو من تأثير ضحكاته.

رأت المرأتيْن القريبتيْن منها تنظران إليهما بشكل استنكاري، فهمستْ إليه:
ـ بالرّاحة. النّاس استغربت منّا. ماذا جرى لك اليوم؟
كتم ما كان يودّ أن ينطلق من ضحكات؛ وقال بصوت خفيض:
ـ أنا لا أعرف بالضّبط ما جرىٰ لي اليوم. أريد أن أحدّثك عن حلم عجيب..

قالت هامسة بدورها متكلّفةً نفادَ الصّبر:
ـ لقد حفظتُ أحلامك كلّها.
ـ لكنّي لم أحدّثك أبداً عن هذا الحلم. إنّه أغرب من حلمك الذي حدّثتني عنه، وهو بالمنّاسبة حلم قديم رأيته منذ أعوام، كلّما تذكّرته أحببتُ أن أحكيه لك ولا أعرف ما شغلني عن ذلك كلّ هذا الوقت.
ـ طيّب تفضّل احْكِ!
سكت لحظة ثمّ قال:
ـ وجدت نفسي أمشي في سرداب مضاء بشموع قليلة، وفي نهاية السّرداب وجدتُ شخصاً مربوطاً إلى جذع شجرة عارياً إلاّ من سروال، ويضربه عدد كبير جداً من النّاس بالسّياط يمزّقون لحمه.
ـ يا ساتر. هذا كابوس، لا حلم.
ـ هل تعرفين من كان هذا الشّخص، ومن الذين كانوا يضربونه؟
بدت الاسترابة في عينيها. قالت:
ـ إيّاك أن أكون أنا! إذا كنت أنا فلابدّ أنّ النّاس كانوا أهلك.
ضحك. ودّ لو ينطلق بالضّحك أكثر لكنّه وضع كفّه فوق فمه.
قال كأنّه يناجيها:
ـ كنت أقتل أهلي وأموّت نفسي.
طالت نظراتهما أحدهما إلى الآخر. تساءلت بهمس حنون:
ـ هل مازلت تحبّني حقّاً؟
ـ مازلت وسأظلّ.
ـ لماذا لم تنزل معي البحر؟
ـ أنت التي لم تنزلي معي، ورغم ذلك فكّرت أن ألحق بك.
ـ سأصدّقك. لكن قل لي إذن من كان ذلك الرّجل المسكين ومن كان الذين يضربونه؟
سكت لحظات ثمّ أجاب:
ـ كان جمال عبد النّاصر. ولمحت مِنْ بين مَنْ يضربونه، ملوكاً ورؤساء عرباً.
ـ أنت فعلاً مجنون.
ـ لماذا؟
ـ لأنّه لا يوجد عاقل يحلم بملك أو رئيس جمهوريّة!

ـ ٥ ـ

بدأ الجالسون في الصّف الأوّل من الشّاطئ يقفون. النّساء يُشرنَ إلى عمّال الشّاطئ ومؤجّري الشّماسي ليأتوا ويخلعوا الشّماسي عن الموقع الّذي وصل إليه الماء وليغرسوها في الخلف. بعض الرّجال بدأوا ينقلون الشّماسي بأنفسهم. انشغل الأطفال بجمع ما يجدونه من أشيائهم. حملت النّساء الحقائب القماشيّة والبلاستيكيّة التي تحتوي الطّعام أو الثّياب، وحملن الشباشب من كل نوع ولون. ارتفع الموج عالياً وطال كلّ شيء، ولأن الذين في الصّف الثّاني لم يتزحزحوا عن أماكنهم فقد حدث اشتباك بالكلمات في أكثر من موضع، واضطر الكثيرون ممّن كانوا يشغلون الصّف الأوّل إلى الرّجوع خلف الصّف الثّاني. لاحظ هو أنّ باب الكابينة العليا الذي كان مفتوحاً، ويتعانق خلفه الفتىٰ والفتاة، صار موصداً الآن. لقد مضى وقت طويل ولابدّ أنّهما قد انصرفا. ورأى فتيات كثيرات يخرجن من الماء في هلع تهتزّ أجسادهن اللدنة اهتزازات خفيفة جاذبة ولامعة بفعل سقوط الضّوء على اللّحم المبتلّ. وبدأتْ ريح تسري بعرض الشّاطئ، غير قادمة من البحر، تحمل سفوفاً غير كثيفة من الرّمال. لاحظ أنّه قد ابتعد كثيراً عن المرأتين اللّتين كانتا تتكلّمان همساً وبسرعة. لماذا حقّاً كان يريد معرفة شيء ممّا تتحدّثان فيه؟. ولاحظ أنّ كثيراً من الفتيات اللاّتي خرجن من الماء قد اتّجهن إلى بائع الآيس كريم الذي اتّسعت ابتسامته. ورأى امرأة بدينة وامرأتين صغيرتين وعدداً كبيراً من الأطفال يبكون حولهم غير بعيدين عنه ويتحدّثون بصوت عال:
ـ لابدّ أن نعود إلى البحر.
ـ البحر هاج، وجدّتُكُم تقول إن البحر لا يكون كذلك إلاّ إذا كان هناك غريق.

نظر إلى زوجته التي كانت قطعُ التّطريز قد سقطت منها وهي تنهض بعد أن طالها الموج، ثمّ غيّرتها بقطعة أخرى عليها خطوط خارجيّة لرسم درويش يدقّ فوق دفّ. فكّر أن يطلب منها مغادرة الشّاطئ مثل الكثيرين الذين يفعلون ذلك الآن، لكنّه تذكّر ما حدث لهما أمس حين هبطت الشّمس من الماء وغادرا الشّاطئ متأخّرين. لقد تشبّعا بجمال غروب الشّمس واشتعال الأفق فوق الماء الأزرق، ونزل هو إلى الماء مجذوباً إلى دفئه المسائي الحنون، وطلب منها أن تشاركه مرّة نزول البحر عند المغيب حيث يختلف الماء لوناً وطعماً ورائحة أيضاً، ووعدته أن تفعل ذلك، وقبل الانحراف إلى الشّارع

الجانبي الذي يفضي إلى العمارة التي يقطنان بها قرّرا الدّخولَ إلى شارع آخر قريب به سوبر ماركت تعوّدا على الشّراء منه. وما كادا يدخلان الشّارع ويبتعدان قليلاً عن الكورنيش حتّى سمعا ضجّة. كانت زمرة من الأطفال تطارد امرأة مخبولة وتقذفها بالأحجار من هلع وتقف فيتراجع الأطفال عنها لتجري فيتبعونها صارخين مهلّلين، بينما وقف عدد من الرّجال والنّساء في الشرفات ينهرون الأطفال الذين لا ينصاعون لهم. في نفس اللّحظة دخلت عربة بوليس «بوكس» الشّارع مسرعة تثير الغبار وتوقّفت فجأة أمام باب إحدى العمارات، ثمّ قفز من صندوقها الخلفي عددٌ من جنود الشّرطة، وقفز من جوار السّائق ضابطٌ شاب، واندفعوا جميعاً إلى داخل العمارة. توقّف الرّجال والنّساء عن الصّراخ في الأطفال، وتابعوا المشهد الغريب لعربة البوليس قبل أن يخرج الجنود والضّابط من العمارة يدفعون أمامهم ثلاث نساء عاريات ملفوفات في ملاءات مضطربة، وخلفهم أيضاً يدفع عدد آخر من الجنود بثلاث رجال عراة تماماً يسترون عوراتهم بأكفّهم. في تلك اللّحظات القصيرة كانت ثلاث عربات خاصّة قد دخلت إلى الشّارع وقفز من كلّ منها عددٌ من الرّجال والشّباب والنّساء حاولوا الفتك بالرّجال والنّساء العراة، لكن رجال الشّرطة منعوهم من ذلك، وقفز العراة إلى صندوق العربة الخلفي ومعهم رجال الشّرطة. وكانت الشرفات قد امتلأت بالنّاس يقذفون باللّعنات والبصقات. وكفّ الأطفال عن مطاردة المرأة المخبولة التي وقفت بعيداً تنظر إلى ما يجري بسعادة طفوليّة وعينين برّاقتين. وانطلقت سيّارة الشّرطة فجرى أصحاب السّيارات الخاصّة إلى سيّاراتهم ليتبعوها، لكن الأطفال كانوا قد سبقوهم في متابعتها وراحوا يقذفونها بالحجارة التي سبقت الجميع. وقالت زوجته:

ـ العجيب أنّي كنت قد نويت اليوم أن أنزل معك إلى الماء عند المغيب.

كان الهواء الحامل للرّمال يشتدّ، وازداد انصراف النّاس عن الشّاطئ. قال:

ـ يمكن أن نأكل الآن وننتظر، فقد يهدأ الحال.

مدّت يدها إلى حقيبة الطّعام. كان عدد من السّاندوتشات قد ابتلّ بالماء. قالت:

ـ لا مفرّ من العودة إلى الشّقة الآن.

كان يدرك أنّ الماء قد طال الطّعام ولا يدرك لِمَ طلب منها أن يأكلا. هل أراد أن تكتشف هي ذلك فتطلب العودة؟ على أيّ حال لم يعلّق. انشغل بمتابعة المرأة الجميلة الباكية التي لم تعد تمشي على الشّاطئ. رآها تمشي فوق اللّسان الصّخري الممتدّ طويلاً في البحر يفصله إلى منطقتين واسعتين للاستحمام. كانت وحدها هذه المرّة. رآها تجلس عند آخر نقطة فوق الصّخور. الموج يضرب في جوانب الصّخر العالية فيرتفع رذاذه ويطولها وينتشر حولها. لكنّها جلست غير مبالية بشيء تنظر إلى الأفق. ورأى، وهو يعود بعينيه عنها، الغطّاس النّوبيّ وقد وقف فوق السّلم الحديديّ ينزل الرّاية البيضاء ويرفع السّوداء ويطلق صفّارته بجنون لكلّ مَنْ في الماء. وفي لحظة ارتفع الموج أكثر وأصدر هديراً عالياً طال الصّف الأوّل للعدد القليل الباقي من المصطافين. كان ذلك الصّف هو الثّاني منذ قليل. الثّاني لم يقتل الأوّل حقّاً تلك اللّيلة، لكن الأوّل لم يقتل الثّاني أيضاً كما ظنّ بعد ذلك. الآن يدرك بوضوح أن شخصاً ثالثاً ظهر خارجاً من زقاق مظلم وقتل الاثنين معاً ثمّ عاد ليختفي في الزّقاق..

القاهرة

اليوم الأوّل

محمد نور الدين

ما إن اقتحمتُ باب المدرسة الابتدائية، في أوّل يوم من أيّام المدرسة الّتي كنت أسمع عنها بشغف من إخوتي الكبار ومن أصحابي الّذين يكبرونني سنّاً، حتّى أُخذتُ بهذا الاتّساع الهائل لفنائها! وبالرغم من أنّ أخي الأكبر كان يقبض على يدي الصّغيرة بحرص شديد كما أوصته أمّي في البيت، فإنّني بدأت أشعر بالضياع في خضمّ هذا العدد الكثيف من التّلاميذ بقاماتهم المتفاوتة. تذكّرت الأيام الممطرة العاصفة؛ كأنّ ساحة المدرسة مكانٌ شاسع أمطرت فيه السّماء أولاداً. وجدت نفسي بتلقائيّة أقبض على أصابع أخي بخوف واضطراب. ويبدو أنّه أحسّ بارتباكي وإحجامي عن التقدّم، فنظر إليّ مطمئناً ومشجعاً، وهمس في أذني بصوت دافئ: «المدرسة حلوة يا وليد..

تطلّعْ.. كلّ التّلاميذ مبسوطون.. هل ترى هذا الطّفل الصّغير كيف ينطّ بمرح وسعادة؟!.. هو مثلك في الصّف الأوّل الابتدائي.. أوّل مرّة يأتي إلى المدرسة..».

لم يكن الاتّساع وهذا العدد الضّخم من التّلاميذ هما وحدهما اللّذان أثارا مشاعر الفزع في نفسي، بل منظر أستاذ كان يصيح بغضب وسخرية. ملامحه متجهّمة ويلوّح بخيزرانة طويلة في يده: «اذهبوا جميعاً إلى وسط الفناء.. لا أحد منكم يقترب من مبنى إدارة المدرسة.. من لم يسرع سأضربه بالعصا..».

جذبني أخي بخوف وتوتّر بعيداً عن المعلّم، وأسرع مجرجراً إيّاي إلى عرض السّاحة.. بين لحظة وأخرى كنت أختلس